خطاب الجسد في الشعر الملحون

الشيخ الجيلالي امتيرد نموذجا

هند بنيس

1ــ الجـــســـد في الغرض "العشاقي" (1)

لا غرو أن الحديث عن الغرض العشاقي في الشعر الملحون، هو بالأساس حديث عن المرأة وعن الجسد الأنثوى بامتياز، بل إن موضوعة الجسد حضور مكثف في إبداعات شعراء الملحون وروائعهم الخالدة. وهذا الحضور محكوم في المتخيّل الشعبي لدى هؤلاء الشعراء بخلفيات سوسيو ثقافية من أعراف وقوانين وضوابط اجتماعية.

ومما لا شك فيه أن أشياخ الملحون قد فتنوا بجمال الجسد الأنثوي وانبهروا بمفاتنه، مما هيج مشاعرهم، وألهبها، وألهمهم نسج قصائد و"سرارب"(2)، تحتفي بهذا الجسد أيما احتفاء، يقول الشيخ أحمد سهوم :" أما التغني بالمفاتن الحسية للمرأة ووصفها من رأسها إلى قدميها، وتصويرها في غلالات لا تكاد تخفي أي شيء من مفاتنها الجسدية، فذلك لا يكاد يحصى"(3).

يحوّل الخيال الشعري الشعبي الجسد الأنثوي إلى لوحة تشكيلية في غاية الجمال، تعكس أحوال العشق ومعاناة العاشق، وتعبر عما تختزنه الذاكرة الجماعية من تصور حول هذا الجسد، وذلك من خلال ما أبدعه شاعر الملحون من قصائد العشق والغزل.

يبدأ شاعر الملحون في وصف جسد المرأة من الأعلى نحو الأسفل بتشبيهات من وحي الخيال الكامن في الذاكرة الشعبية، التي يستطيع المخاطب تمثلها دون عناء لأنها حاضرة في مخيلته، فجسد المحبوبة غائب حاضر بواسطة التشبيه البلاغي، هكذا يتجسد أمامنا بالكيفية التي أرادها له الواصف، أي يصبح الجسد صورة ذهنية تتحدد بمدى براعة ودقة الوصف ومدى تمثل ذهنية المتلقي لتلك الأوصاف. وقبل أن يتعرض شاعر الملحون لتفاصيل الجسد، نجده يشيد في محبوبته

أخلاقها، ذكاءها، فطنتها وهمتها، ويستعرض الشكل الخارجي بصفة عامة، ثم بعدها يذكر اسمها، حيث إن اسم المعشوقة جزء من جسدها، بعد ذلك ينتقل إلى تفاصيل الجسد في وصف غالبا ما يكون ذا صبغة إغرائية.

تتبع شاعر الملحون- في منتهى الدقة- جميع ملامح المرأة ومفاتن جسدها، واختار ما يناسب كل عضو من الصفات والمشبهات بها حيث ورد وصف تفصيلي للجسد الأنثوي، وصف عمودي من الشعر إلى راحة القدمين فـ "رسم صورة المحبوبة مفصلة الأجزاء مكتملة الأبعاد، لم يترك الشاعر جزء واحدا من جسدها لم يطل النظر إليه، مبتدئا بشعرها الفاحم وعينيها الفاترتين، ومنتهيا إلى ساقها الذهبي الممتلئ وخلخاله، متتبعا ما بين ذلك لم يترك ملمحا إلا توقف عنده ليمعن في وصفه وتشبيهه (...)"(4).

وإذا تأملنا الأوصاف التي يسبغها شاعر الملحون على جسد المرأة، وجدناها لا تخرج كثيرا عما عرف في الشعر العربي الفصيح، والشيخ الجيلالي امتيرد في عشاقياته لا يخرج عن الصورة المثال التي أبدعها الشاعر العربي في العصور الخالية، وكذا شعراء الملحون بدون استثناء مما يدفعنا إلى البحث من أجل تأكيد هذه الصورة للجسد الأنثوي لدى الشيخ الجيلالي امتيرد، التي تتواتر عبر قصائد ديوانه بشكل جلي .

2ـ الجسد الأنثوي في قصيدة الزطمة : لنتتبع موضوعة الجسد في قصائد العشق عند امتيرد ونرصد كيف يتحول ما هو روحي وإحساس داخلي لدى الشاعر إلى دلالات حسية مجسدة. يجعل امتيرد في قصيدة "الزطمة"(5) من خليلته، تطلب منه وصف جسدها وتعداد مفاتنها.

قالْتْ لِي تَـــاجْ الرْيَـــامْ وصَّفْنِي في بْديـــــعْ النْظامْ
قُلْتْ لِيهَا كِيفْ نْـــقُولْ قَالْتْ اللِّي شَفْتِي وَصْفُه وحَدْقه
وانْطَقْ لي بالحَقْ لا تَكْتَمْ اشْهَادَةَ (...) (6)

ينطلق الجيلالي واصفا جسدها عضوا عضوا، إذ كانت تملي عليه أعضاءها وهو يجاري رغبتها محاولا الإتيان بأبهى الصور التي تفيض بها قريحته من أجل إرضائها والفوز بوصالها:

(...)قالـــــتْ لِـــــي قَدِّي
قلْـــتْ لِـــهَا صَارِي في مُـــرْهْقَـــانْ شَمَّـــرْ قَلْعُه وَآتَـــى بالغْنِيـــمَة

قالْـــتْ تيتـــــي قلتِ لِهَا تَـــعْبـــانْ في زَفْرت الـــكوايَلْ وارْخـــاتُه في اوْطَانْ زيمَة
قالْـــتْ غُرَّة قُلْتْ لِـــهَـــا غُـــرَّة تَحْكِي كمـــا اسْـــجَنْجَلْ وجْـــبِيـــنْ
اهْلاَلْ تَكْ بِيـــنْ الفَلكينْ في مَنْزْلَة اعْظِـــيمَة قالـــتْ حَجْبِيـــنْ
قُلْتْ لها حَـــجْـــبِيـــنْ امْدادْ في يدْ خَطَّاطْ وصـــاحَـــبْ العْـــزِيـــمَـــة
قالَتْ لحْـــضِينْ قُـــــلْتْ لها فَـــرْصادْ احْكِـــيتْ والشْـــفارْ اصْـــوارَمْ
لَهْلْ الهْوَى اخْصيمَة قَالْتْ خَدَّيْ قُلْتْ لها زهْرْ عْلَى وَرْدْ قَـــاني
فَتَّحْ في اليالِي ما يْليـــهْ قِيمَـــة قَالْتْ غَنْجُورْ قُلْتْ لِهَا غَـــنْجُورْ اسْـــــلِـــيـــسْ
والْمْراشَفْ والرِّيقْ امْصَالْ والثْغَارْ اجواهَـــرْ عَتْنُونْ فُوقْ غُبَّة رَكْبَة تَـــنْبَا رَكْبَتْ شادي
واضْعُودْ المِيـــضْ شَـــيْرُوا والصَّدَرْ الْبَاهِي رَقْمُه حَجَّـــامُه بِينْ النْهُـــودْ
والَمْ واعْمَلْ شَـــلاَّ انْـــــصِـــيفْ وتاتُو سرة طاسَة الدْهَبْ والرْدَفْ المَالِي يَنْتْقَلْ
وافْخَاضْ اعْـــسَارَة وسَاقْ مَدْغوجْ اكْما البلاَّرْ والقْدَامْ اخْدَلَّـــجْ ذَا ما ادْرْكْـــنَـــــا
اوْصَافَكْ أَلاَلَّـــة تَفْهَى فِيهْ عْقُـــولْ الرْجَالْ بْحَالِي شَلاَّ انْـــــصِيفْ ..(7).

إن شاعرنا يمعن النظر في الجسد، ويتمادى في التعبير عن رغبته الصارخة في تملك هذا الجسد، بما فيه من فتنة وغواية ألهبت عواطفه وكشفت مراده، حيث تبدو ظاهرة الشبقية والدافع الليبيدي المتحكم في تصوره وتشكيله لصورة المرأة المثال، مما يبرهن على أن وصفه كان محكوما بتقليد تخييلي راسخ في الذاكرة الجماعية التي تعيش فيه باستمرار استيهاماتها الشهوانية والجمالية. ذلك ما سنتبينه من خلال تتبعنا لهذا الوصف.

لنتمعن كثافة المعجم الدال على الجسد ولنفصله عن سياقه الأصلي (القد، التِّيتْ أي الشعر، الغُرَّة، الجبين، الحاجبين، اللحظين، الشْفَارْ، الخدين، الغَنْجُورْ أي الأنف، الْمْراشَفْ أي الشفتين، الثغر، العَتْنُونْ أي موضع الذقن، الرگْبَة أي الرقبة ،الصدر، النهود، السرة ، الردف، الأفخاد، الساق، الأقدام).

يقدم امتيرد جسد المرأة في صور وتشبيهات بلاغية مما يجعل منه جسدا متخيلا، جسدا مرسوما بخطاب شعري بليغ، كي يصبح مصدر فتنة وشهوة لا متناهيين، ذلك أن امتيرد

يُخضع الوصف لسلطة مخيّلته ورغباته، من ثم يصبح الجسد تخييليا، ولبلاغته وبراعته في الوصف تتضح رغبة الشاعر في الوصال ، فتفهم العاشقة مراده وتهديه جسدها بلا تردد قائلة:

اتْـــبَارْكْ الله احْجَابْ الله و اسَـــمْ الله اعْليكْ أَنابْغْ الْمْعَانِي الخَبْرْ المَدوَّبْ
الجِّيلاَلِي مَجَّـــادْ الرْيَامْ وانَا لِيكْ خَادَمْ اعْلَى امْدِيحَكْ لِيكْ **الرَّگْبَة** احْلاَلْ(8)

3ــ مقصدية الشهوة والإثارة: الشيخ الجيلالي امتيرد في جل قصائده وهو يصف الجسد، يحاول أن يؤسس لمرحلة لاحقة هي مرحلة الوصال، أي مرحلة اتصال جسدي تكون مرتقبة وإن لم يكن وصالا واقعيا حقيقيا وإنما فقط هو اتصال جسدي متخيل، وإلا فلم كل هذه الإثارة والشهوة الظاهرة جليا والمتواترة في أغلب القصائد العشاقية التي لا تخلو من التلذذ بوصف الجسد الأنثوي؟.

ولنتأمل وصفه لمعشوقته في قصيدة " امباركة"(9).

التِّيتْ اغْلَسْ مَنْ ريشْ قَارْ
واجْبِينْ مْعَ الغُـــرَّة اقْمَارْ
واحْوَاجَبْهَا نُونِيـــــنْ عَنْ افْتَـــرْ
والشْفَرْ الْقَـــتَّالْ والخْـــدُودْ اوْرَادَة
والأَنْفْ تُرْكْلِي وامْـــرَاشَفْ شَهْـــــدَاتْ فوقْ غُـــــبَّـــة
والصْدَرْ ارْخَامْ مَرْمْرِي فيهْ اتْـــــفَـــافَحْ وَاقـــــفِيـــــنْ
شـــفْتْ السُّـــرَّة طَـــاسَـــة مَـــنْ الذْهَـــبْ
والرَّدْفْ الْمَعْمُورْ والْفْـــخَـــادْ اعْسَـــارَة
والسَّاقْ مَا إيْليهْ انْهَـــايـــــَة بَـــلاَّرْ
واقْدَامْ اخْدلَّجْ فِي احْلولْ والحْلي مَرْگومة
هَذَا اوْصَافْ مَنْ نَهْوَاهَا ...

يكثف الشاعر المعجم الدال على الجسد وهو معجم يكاد يسطو على جل قصائد الجيلالي امتيرد، ونلاحظ أنه يكرر وصف نفس الأعضاء الجسدية في جل قصائده، وأكثر من ذلك نجده يستعمل الوصف ذاته، فالشَّعر دائما في سواده الفاحم يشبه ظلام الليل أو سواد

العبيد، أو ريش طائر أسود... الجبين أو الغرة مضيئة مشعة كالأقمار أو هلال بين الأفلاك، والعيون يجعلها تقتل، تذبح تقطع وتخترق، والحواجب كحرف النون، والخدود كالورد والشفتان كالشهد والصدر كالرخام محفوف بالوشم، أما التفاح فهو استعارة للدلالة على النهود، والريق خمرة معتقة تذهب بالعقول، والردف ممتلئ شبهه بزجاج شفاف لنعومته.

إن خطاب الجسد الأنثوي لدى أشياخ الملحون، هو تعبير في حد ذاته عن العشق والرغبة في تملك هذا الجسد مما يحيل الشاعر على استعمال كل تلك التشبيهات والصور الشعرية حيث "تتحكم مقصدية الشهوة في صياغة هذا النموذج الجمالي الخطابي، بما أن كل رغبة نوع من العشق فإن ما من شيء يدعو إلى المجازي والتصويري أكثر من العشق والرغبة، فهذه الأخيرة تجرد الجسد من علاقاته لتتمكن من تملكه تخيلا وواقعا. فالتجريد يكون بهذا المعنى تخصيصا للجسد من الناحية الليبيدية لأنه يعبر عن الرغبة "(10).

انطلاقا من خطاب الجسد يحاول الشيخ الجيلالي امتيرد إثارة الرغبة الجنسية لدى المعشوقة حتى يتوفق في كسب حبها ووصالها، بل يحاول إثارة السامع أو المخاطب بصفة عامة، ولعل هذا بالضبط ما جعل قصائده تُدعى بـــ" الشْعَّالَة"(11). وبتلك البلاغة التصويرية للجسد يعبر بلغة خطابية يرمي من خلالها إلى البرهنة لنا ولصاحبته وللجاحدين (أي المدعين) على أنه سيد اللغة، لذا فجل قصائده التي تنتهي بوصال لمعشوقته يختمها بهجاء لأعدائه نكاية بهم، وهو ما يسمى بلغة الملحون (الزرب) (12) أي يحاول البرهنة على تفوقه في الوصف وأنه لا أحد يجرؤ على مضاهاته في ذلك.

4 ــ الصراع بين الرغبة والواجب الديني : فصل الخطاب الديني بين نوعين من العشق: عشق مدنس وعشق مقدس بمعنى"عشق حرام وهو زنى سواء كان معبرا عنه بالنظر أو بالكلام أو باللمس، وعشق حلال وهو شرعي بمؤسسة الزواج ووثاقه، هذا العشق يفضي إلى مرضاة الله وثوابه، في حين أن العشق الحرام ينتهي بسخط الله وعقابه."(13) فالخطاب الديني يجعل العاشق طامعا في ثواب الآخرة، إنه خطاب إغرائي يحث على التخلي عن شهوات النفس الدنيوية إلا في إطارها الشرعي .

يعبر الشيخ الجيلالي امتيرد في قصائد العشّاقي بواسطة خطاب عشقي عن صراع مرير بين إثارة الجسد الأنثوي والرغبة الجامحة في الاستمتاع بهذا الجسد، وبين حدود دينية مسلطة كرقيب ورادع لمثل هذا العشق، إنه جسد امرأة في غاية الفتنة " وما من أحد يمكنه مقاومة مفاتنها بما في ذلك العفيفون الأتقياء..."(14). إن الجسد في قصائد الملحون جسد معشوق لفتنته وجماله لكنه جسد محرّم بلغة الدين وسلطته، إنه الواجب الديني الذي يكبح جماح الرغبة، من هنا تتّضح مقصدية ومغزى إنهاء قصائد "العشّاقي" بالتوبة وطلب المغفرة .

يقول امتيرد في قصيدة "زنوبة"(15)

نَصْبَحْ وانْماسِي كُلْ يُومْ سلْطَانْ اهْلاَلِي ربِّي غَفَّار مَنْ ازْلاَيَلْ المَـــكْتُوبَة

و يقول في قصيدة "المعشوق"(16).

بالدْعَاء لاَ زَلْتِي مَلْحُوقْ يَا الْمَعْشُـــوقْ والْعْفُو مَنْ الْكْرِيمْ إلَى اهْنَا الرَّازَقْ

من خلال هذه الرغبة الجامحة في تملك الجسد الأنثوي، وكل هذا الاستغفار يتضح جليا التعارض بين خطاب العشق الذي يدعو إلى الاحتفاء بالجسد والاستمتاع به والخطاب الديني الذي يحث على طلب العفة والطهارة وضبط شهوة النفس والجسد، ليعيش الشاعر صراعا بين الرغبة والعفة، متأرجحا بين عشق يتملكه وعقاب أو ثواب ينتظره.

الهوامش

1-يدخل في" العشاقي " كل قصائد التغزل والحب والخمريات ووصف الطبيعة، وهم يطلقون عادة على القصائد الموضوعة في العشاقي أسماء النساء المحبوبات...أُنظر الفاسي محمد، معلمة الملحون القسم الأول من الجزء الاول ،1986، ص:114 ــ115

2-مفردها سرابة وهي قطعة شعرية قصيرة يقدم بها في إنشاد القصيدة، وتكون على نفس البحر...وعند الأشياخ أن الذي لا ينظم السرابة لقصيدته لا يستطيع ضبط ميزانها بل لا يعتبر شيخا. أُنظر الجراري عباس، معجم مصطلحات الملحون الفنية، المناهل العدد 11 السنة 1978، الرباط ،ص:53.

3-أحمد سهوم، المرأة في الملحون، قضية المرأة، المناهل ، العدد 45 السنة 1994، ص 119.

4-عباس الجراري، الزجل في المغرب ، القصيدة، مطبعة الأمنية –الرباط 1390هـ-1970م ص. 207- 208

5-امتيرد ، الديوان ، مطبوعات أكاديمية المملكة، الرباط ،2008، ص93

6-نفسه،ص 98

7-امتيرد ، الديوان ،قصيدة الزطمة ص: 99

8-امتيرد الديوان ،قصيدة الزطمة ص:93.

9–الجيلالي امتيرد، الديوان ص، 209

10–فريد الزاهي ، الجسد والصورة والمقدس في الإسلام ،الطبعة الثانية 2010 أفريقيا الشرق ،ص89 .

11–. الشعالة : القصائد التي من شأنها أن تحرك السامعين وتهزهم وتؤثر فيهم، وهو وصف كان يطلق على قصائد الشيخ الجيلالي امتيرد، انظر: عباس الجراري معجم مصطلحات الملحون الفنية، المناهل العدد 11 السنة الخامسة 1978. ص. 64.

12–الزرب: القسم الأخير من القصيدة إذا اشتمل على الهجاء، تشبيها له بالسياج الذي يحيط بالحدائق والبساتين ويحميها، فكان هذا الزرب يحمي القصيدة ويرد عن صاحبها الخصوم، انظر عباس الجراري، معجم مصطلحات الملحون م.س. ص 51.

13–عبد العزيز أعمار، خطاب العشق، حديث النساء والمتخيل الجماعي ضمن الخطاب حول المرأة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط،سلسلة:ندوات ومناظرات رقم65 ،ص 125

14–طاهر لبيب، سيوسولوجيا الغزل العربي، الشعر العذري نموذجا، ترجمة مصطفى المسناوي، دار الطليعة،ط–1، 198 ص:.96

15–الديوان ،ص 101

16–نفسه ، ص 195